

اسرار المتقدم الماسيوى

بقلم

د . حامد طاهر

تأملت طويلاً فى أسرار تقدم بلدان جنوب وشرق آسيا بتلك المعدلات العالية، التى أصبحت مضرب المثل فى مجال التنمية، وموضع الدهشة من البلاد الغربية، وكذلك نموذجاً للمقارنة مع البلاد العربية التى سعت إلى التقدم فى نفس الوقت الذى سعت فيه الأخرى فيه، بل ربما قبلها بعشرات السنين. وسوف أعرض هنا لعدد من العوامل وراء نجاح هذه البلاد، وفى مقدمتها أن شعوبها تقدس العمل. ولما تركن كثيراً لأحلام النوم أو أحلام اليقظة. ومن أهم ما يميز الشعوب الآسيوية أنها قليلة الكلام، وبالتالي فهى قليلة الجدل حول أمور لا تقدم ولا تؤخر، والدليل على ذلك أنها لم تضع وقتاً طويلاً فى كيفية البحث عن وسائل التقدم، وإنما ركزت على مجال واحد هو مجال المحاكاة، أى تقليد النماذج الناجحة فى كل الميادين. فقد قلدوا صناعة السيارات الغربية حتى تفوقوا عليها، كما قلدوا أساليب الزراعة المتطورة حتى برزوا فيها، ولأنهم بطبيعتهم تجار مهرة فقد استطاعوا أن يسوقوا ما ينتجون، سواء على المستوى المحلى أو العالمى. وهنا سر يقف وراء تفوقهم يرجع إلى احترام مكانة كل شخص ووظيفته، وقد يقال أن فى ذلك نوعاً من الطبقية الاجتماعية، ولكنها عند التحليل عبارة عن طبقية ديمقراطية بمعنى أن كل فئة من فئات المجتمع تعرف وظيفتها جيداً، وتكرس جهودها للإتقان فيها دون الانشغال بأحوال ومكاسب الفئات الأخرى. وكأنهم بذلك يسرون على المبدأ الموجود عندنا (كل ميسر لما خلق له). فى ماليزيا مثلاً توجد أهرام متنوعة، ومع ذلك لا يتدخل أحد فى عادات الآخر وتقاليد ومعتقداته. فالكل مواطنون يعملون ويتعايشون وينعمون أخيراً بنتائج أعمالهم. الأمر اللافت للنظر بحق هو المحاولة المستمرة للإتقان، دون كثرة الحديث عنه. فالمنتجات الزراعية تم تطويرها على نحو مذهل، وكذلك المنتجات الصناعية والإلكترونية. وهناك تزاوج بين الجامعات ومراكز البحوث وبين مؤسسات الإنتاج من أجل تحسينه، وحل ما يعترضه من مشكلات. كما أن تشجيع المشروعات الصغيرة يسير جنباً إلى جنب مع المشروعات الكبرى أو العملاقة التى لا تقدر عليها سوى الدولة. المصانع اليدوية الصغيرة منتشرة فى البيوت والأسرة بكل أفرادها تعمل: فهناك من يشتري الأدوات الأولية، وهناك من يقوم بتصنيعها، وهناك أيضاً من يقوم بتسويقها. ولما تحس بأن قبضة الحكومة على هذه المشروعات الصغيرة قوية أو غائبة، وإنما هى متروكة للعرض والطلب. والواقع أن الطلب متزايد، والعرض مستمر فى محاولة الجودة والإتقان. كنا فى الماضى لا نثق إلا بالإلكترونيات التى تصنع فى اليابان، ثم ما لبثت الصين وكوريا أن أصبحتا منافسين لها، وأخيراً دخلت إندونيسيا وماليزيا وتايوان.. هل تعلم مثلاً أن منتجات هذه الأخيرة التى أغرقت العالم والبلاد العربية يتم تصديرها بدون وزارة للتجارة الخارجية، وإنما من خلال محلات ومصانع صغيرة للغاية، يتواجد فيها تجار يعطون كل زبون ما يحتاج إليه ؟!

الطبيعة جميلة جداً فى بلدان جنوب شرق آسيا. كما أنها أحياناً قاسية ببراكينها وزلازلها وفيضاناتها المدمرة، ولكن الإنسان استطاع أن يعيش فيها ويتعايش معها، وأن يبني حضارة متميزة، أصبحت محط أنظار السياح فى العالم.

سألنى صديقى : باختصار ما هى أهم عوامل تقدم هؤلاء الناس ؟ قلت له : يعنى تريد من الآخر ؟ قال : أجل . قلت : قلة الكلام ، والعمل المتواصل ، والإتقان . وبالمناسبة من أهم ما لاحظته عندهم هو عدم وجود مذيعة ربط فى التلفزيون !!